زعماءُ مكّة

قاسم محمّد

نحاول أن نتحدث عن إلمامة تاريخية سريعة عن تاريخ الزعماء، الذين أُنيطت بهم إدارة مكّة المكرمة من أول الأنبياء آدم عليه السلام حتىٰ خاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وآله. وعن المشاريع والتشريعات والأحداث التي حدثت لكلّ واحد من هؤلاء الزعماء والقادة. وقد تشرفت مكة في هذه الفترة أن يكون من بين زعمائها مجموعة من الأنبياء عليهم السلام والصالحين من القادة؛ ولذا حظيت مكّة بأفضل الأنساب وأفضل القيادات، وصدرت منها أفضل التشريعات، حتىٰ في الجاهلية التي احتفظت ببعض الأعراف والتقاليد الجيدة وعندما جاء الإسلام أقرَّ الكثير منها، ثم إنّ الكثير من الأحداث التي حدثت فيها تعدُّ أحداثاً عالمية تأثرت بها معظم الأمم والشعوب، وتحدثت عنها الكتب السماوية المقدسة بما فيها القرآن الكريم، وأُمهات الكتب التاريخية المهمّة، وما حظيت مدينة في العالم من الاهتمام كالذي حظيت به مكّة.

أهمية مكّة

تعود أهمية زعماء مكة، إلىٰ أهميتها من الناحية التأريخيه، والمعنوية والاقتصادية.

الناحية التأريخية والخلاف في قدم مكة

فمن الناحية التأريخية. فقد اُختلف في تأريخ مكة، هل كانت قائمة قبل إبراهيم عليه السلام ثم عرض عليها الخراب بعد ذلك فجدّدها إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، أم أنّ تاريخ بنائها وإنشائها يعود إلىٰ إبراهيم عليه السلام؟ ذهب بعض أهل التفسير وكتّاب التأريخ من المسلمين إلىٰ أنّها أسبق من إبراهيم عليه السلام ويعود تأريخها إلىٰ آدم عليه السلام، مستدلين علىٰ ذلك بمجموعة من الروايات والأقوال والأقاصيص. في حين ذهب الرأي الآخر إلىٰ أنّ هذه الروايات أخبار آحاد. والأقوال والأقاصيص خرافات وإسرائيليات، وبعضها يعتمد على ما حرّف من التوارة والإنجيل، فلا مجال للاعتماد عليها. وإنما المتيقن أنّ إبراهيم هو أول من بناها. كتاباً وسنةً صحيحةً. وبعضهم توقف عن الحكم. وقالوا: الله أعلم؛ لأنّ العقل لا مجال له للحكم في هذا الباب سلباً أو إيجاباً[1].

دافع السيد الطباطبائي[2] عن الرأي القائل بقدم مكة: فقال في معرض تعليقه علىٰ هذه الأخبار «ونظائر هذه المعاني كثيرة واردة في أخبار العامة والخاصة وهي وإن كانت آحاداً غير بالغة حدّ التواتر لفظاً أو معنى، لكنّها ليست معادمة النظير في أبواب المعارف الدينية ولا موجب لطرحها من رأس» وفي موضع آخر أثناء رده على الرأي الآخر: قال: «ما ذكره لا يخلو من وجه في الجملة إلّا أنّهُ أفرط في المناقشة، فإنّ التناقض أو التعارض إنما يضرّ لواحد بكلّ واحد منها.

أما الأخذ بمجموعها من حيث هي ـ بمعنى لا يطرح الجميع لعدم اشتمالها علىٰ ما يستحيل عقلاً أو يمنع عقلاً ـ فلا يضره التعارض الموجود فيها، هذا بالنسبة لأخبار المعصومين (الأنبياء والأئمة عليهم السلام)، أما غيرهم من المفسّرين فحالهم حال

غيرهم من الناس، وحال ما ورد من كلامهم الخالي عن التناقض حال كلامهم المشتمل على التناقض، وبالجملة لا موجب لطرح رواية أو روايات إلّا إذا خالفت الكتاب والسنة القطعية، أو لاحت منها لوائح الكذب والجعل»[٣].

ويمكن إضافة بعض المرجحات التي تدعم هذا الرأي:

المرجح الأول: ما جاء في الكتاب العزيز عند قوله تعالىٰ على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿**ربّنا إنّي أسكنتُ من ذريتي بوادٍ غير ذي زرع عند بيتك المحرم**﴾[٤] فقول إبراهيم عليه السلام عند بيتك المحرم يدل علىٰ أنّ البيت كان قبل ذلك، إلّا أنّه دخل عليه الخراب. نعم هناك توجيهات أُخر للآية كأن يقال: إنّ كلام إبراهيم عليه السلام هذا كان آخر عمره بعد بنائه للبيت الحرام. وبعدما سكنته جرهم. وهذا يمنعه أن يكون دليلاً، ولا يمنعه أن يكون مرجحاً. وكذلك الكلام في قوله تعالىٰ: ﴿**إنّ أوّل بيت وضع للناس للذي ببكة**﴾[٥] فيمكن حمل الأول علىٰ أقدم بيت وضع للعبادة في عصر آدم عليه السلام لا كونه أقدم من القدس كما في بعض التفاسير.

المرجح الثاني: ما ورد في خطبة القاصعة في نهج البلاغة[٦]. قال أمير المؤمنين: (ألا ترون أنّ الله سبحانه اختبر الأولين من لدن آدم (صلوات الله عليه) الى الآخرين من هذا العالم بأحجار لا تضرّ ولا تنفع ولا تبصر ولا تسمع، فجعلها بيته الحرام الذي جعله للناس قياماً؟) وفيه صراحة أن البيت وضع من لدن آدم عليه السلام.

المرجح الثالث: مرجح عقلي، وهو أنّ الله سبحانه وتعالىٰ بعد إخراج آدم من الجنة. لايعقل أن يتركه من غير أن يعلمه مراسم عبادية تناسب موقعه الجديد حتىٰ يأنس بها ويروي غريزة العبودية لله تعالىٰ. وعلىٰ قول الشهيد الصدر رضوان الله عليه:[٧] إنّ العبادة حاجة إنسانية ثابتة في نفس الإنسان في جانبها الحسي المعنوي. والقبلة والحج من أبرز المظاهر العبادية الحسية والمعنوية. فما المانع أن يكون البيت الحرام ولدمع آدم عليه السلام ليلبي تلك الحاجة. ونحن نعلم ما للحج من فضيلة وأثر في هذا

المجال؟! فقد ورد عن الباقر عليه السلام[٨]: «لا زال الدين قائماً ما قامت الكعبة» وعن أبي عبدالله عليه السلام: «الحجّ أفضل من الصلاة والصيام».

وإنّ القرآن الكريم قرن ترك الحج بالكفر إذ قال تعالىٰ: ﴿**ولله على الناس حجّ البيت من استطاع إليه سبيلاً ومَن كفر فإنّ الله غنيّ عن العالمين**﴾[٩] وغير هذا كثير.

وإذا ثبت هذا عند ذلك نقول: إنَّ زعامة مكة بدأت بآدم عليه السلام وبأوصيائه من بعده، إلىٰ أن دبّ الفساد في بني آدم، عند ذلك هجروا الكعبة. وبقيت مهجورةً من زمن نوح عليه السلام بعد الطوفان، من غير زعامة ولا سكن إلىٰ أن جاء إبراهيم عليه السلام فأعاد بناءها وجدّد مناسكها. وظهر ماء زمزم فيها، ثم بقيت قائمةً شامخةً تهوي إليها أفئدةٌ من الناس إلىٰ يومنا هذا.

الأهمية المعنوية

ولعلّها الأهم في هذا الباب؛ لأنّها الدافع الأول للتنافس علىٰ زعامتها، ولأنّ غالباً ما تمتد الزعامة المعنوية إلىٰ أبعد من مكة والجزيرة، لتشمل العالم كلّه. ولأهمية زعامتها هذه نجد كثيراً من الأحيان أن يتقاسم هذه الزعامة مجموعة من الوجوه أو القبائل، كلّ له جانب من جوانب تلك الزعامة، وسميت بأسماء بقيت موضع فخر لمن حاز طرفاً من تلك الزعامة، وأحياناً يزداد عدد الزعماء والمهام، فيتألف بذلك نظام حكومي أشبه ما يكون بالجمهوريات المعاصرة.

وتعود أهمية مكة المعنوية إلى كونها المنطلق الأول للبناء التكويني للحضارة الإنسانية، وكذلك البناء التشريعي حيث عرف الإنسان أول الشرائع علىٰ يد آدم عليه السلام في مكة المكرمة. وأُضيفت إليها تشريعات جديدة كلما تجددت الحياة. وعندما تحرك الإنسان من هذه الأرض حمل معه ميراثه من هذه الشرائع. إلّا أنّه للأسف الشديد عمد إلى تغييرها وتحريفها، تدفعهُ إلىٰ ذلك المصالح الشخصية والأهواء النفسية. ومع ذلك بقيت مكة محط أنظار العالم تنطلق منها بين الفينة

والأخرىٰ أنوار هدى يستضيء بها العالم.

وبقيت معظمةً من قبل جميع الأديان والقوميات، يقدمون لها الهدايا والقرابين والنذور ويزورونها للدعاء حتىٰ قبل بناء إبراهيم عليه السلام لها. فكان الهنود يعظمونها ويقولون: إنّ روح «سينا» وهو الأقوم الثالث عندهم حلّت في الحجر الأسود. حيث زار سينا مع زوجته بلاد الحجاز[١٠].

وكانت الصابئة من الفرس والكلدانيين يعدونها أحد البيوت السبعة المعظمة. وربما قيل: إنّه بيت زحل لقدم عهده وطول بقائه[١١]، وكان الفرس يحترمون الكعبة أيضاً زاعمين أنّ روح هرمز حلّت فيها[١٢]. وكان أسلافهم يقصدون البيت الحرام ويطوفون به تعظيماً له ولجدهم إبراهيم. وكان آخر من حجّ منهم ساسان بن بابك. وقد أهدىٰ غزالين من ذهبٍ وجواهر وسيوفاً وذهباً كثيراً، فدفن في زمزم. وقد افتخر بعض شعراء الفرس بعد ظهور الإسلام وقال:

وما زلنا نحجّ البيتَ جمعاً ... ونلقىٰ بالأباطح آمنينا
وساسان بن بابك سار حتىٰ ... أتى البيت العتيق يطوف دينا[١٣]

وكان اليهود يعظمونها ويعبدون الله فيها علىٰ دين ابراهيم عليه السلام وبها صور وتماثيل منها تمثال إبراهيم عليه السلام وإسماعيل عليه السلام وصور العذراء والمسيح عليهما السلام ويشهد ذلك علىٰ تعظيم النصارىٰ لأمرها[١٤]. وموضع البيت الحرام يأتيه المظلوم والمتعوذ من أقطار الأرض. ويدعو عنده المكروب، فكلّ من دعا هناك استجيب له. وكان الناس يحجّون إلىٰ موضع البيت حتىٰ بوّأ الله مكانه لإبراهيم عليه السلام لما أراد عمارة بيته وإظهار دينه وشريعته[١٥].

ولم أهبط منذ أنزل الله آدم عليه السلام إلى الأرض محرماً بيته تتناسخه الأمم والملل أُمة بعد أُمة وملّة بعد ملّة[١٦].

وكان النبيّ من الأنبياء إذا هلكت أُمته لحق بمكة، يتعبد فيها ذلك النبي ومن

معه حتىٰ يموت فيها، فمات فيها نوح وهود وصالح وشعيب، وقبورهم بين زمزم والحجر[١٧]. وبين زمزم والركن قبور سبعين نبي[١٨].

ومن هذا نعلم مدىٰ أهمية زعامة مكة عالمياً، وليس فقط بالنسبة للجزيرة والعرب.

الأهمية الاقتصادية

يمكن إيجاز الأهمية الاقتصادية لمكّة بكونها الممر التجاري للقوافل، التي تنقل البضائع من مختلف بقاع العالم، وتكون حلقة وصل بين الحضارات المختلفة؛ لذلك أنشئت في مكة مجموعة من القنصليات لمختلف الدول والممالك المحيطة بالجزيرة العربية كالأحباش، والروم، والفرس، وعيّن فيها ممثلون لبعض الممالك العربية التي أسست علىٰ أطراف الجزيرة العربية. وأنشئت مجموعة من الأسواق للتبادل التجاري بين هذه الأمم. كسوق عكاظ وذات المجاز وغيرها، وأنشئت أحلاف وعلاقات للحفاظ علىٰ هذه التجارة وحركة القوافل بين القبائل والممالك المختلفة.

والشيء الآخر الذي أعطىٰ مكة أهمية اقتصادية هو الهدايا والنذور والقرابين التي تقدم للكعبة والحرم، وقد خصص مكان لجمع هذه الهدايا والنذور.

زعامة آدم عليه السلام

عندما أنزل الله سبحانه وتعالىٰ آدم إلى الأرض حمّله الأمانة علىٰ هذه الأرض ﴿**إنّا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنّهُ كان ظلوماً جهولاً**﴾[١٩].

ثم أخذ منه ومن ذريته ميثاق الربوبية ﴿**وإذ أخذ ربُّك من بني آدم من ظهورهم ذريتَهم وأشهدهم علىٰ أنفسهم ألستُ بربّكم قالوا بلىٰ شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين**﴾[٢٠].

وعندما أحسّ آدم وحواء عليهما السلام بالوحدة والوحشة طلبا من الله سبحانه

وتعالىٰ أن يأتيها صالحاً يأنسا به، فأوحىٰ الله إلىٰ آدم: ﴿**سأخرج من صلبك من يسبحني ويحمدني، وسأجعل فيها بيوتاً ترفع لذكري، وأجعل فيها بيتاً أخصّه بكرامتي وأُسميه بيتي، وأجعله حرماً آمناً... تعمره أنت يا آدم ما كنت حيّاً، ثم تعمره الأمم والقرون والأنبياء من ولدك...**﴾[٢١].

ولما حقق الله لهُ ذلك، وأصبحت لهُ ذرية ورعية، واجه آدم في زعامته المشكلة الأولىٰ، وهي الصراع بين قابيل وهابيل.

وعلىٰ ما في بعض الروايات احتكموا إليه في أمر زواج كلّ واحد من توأم أخيه الآخر، وكانت توأم قابيل أكثر جمالاً، فحكم عليهم أن يقربا قرباناً تأكل النار من تقبل منهما ويستحق الاخت الجميلة ﴿**واتلُ عليهم نبأ ابني آدم بالحق إذ قربا قرباناً فتُقبل من أحدهما ولم يُتقبل من الآخر**﴾[٢٢].

فاستشاط قابيل غيضاً عندما جاء الحكم ليس بصالحه ورفض الحكم، وقتل أخيه هابيل بعد أن قال له هابيل ﴿**لئن بسطت إلي يدك لتقتلني ما أنا بباسط يَدِيَ إليك لأقتلك**﴾[٢٣] لكن قابيل ﴿**فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله**﴾[٢٤].

ومن هذا الحدث الخطير انقسمت الانسانية ومنذ عصر آدم عليه السلام إلىٰ قسمين: أهل الخير وأهل الشر. احتفظ أبناء آدم الخيرين من ذرية آدم بموقعهم قرب الكعبة في جبال مكة وضواحيها. بينما ذهب قابيل وبنوه إلىٰ سهول الجزيرة واليمن، واندفعوا في أرض الله الواسعة بعيداً عن نور النبوّة ومشعل الهدىٰ فراحوا في ظلام الجهل يتخبطهم الشيطان، يفعلون المنكر ويأتون الشهوات ويعيثون في الأرض فساداً، وتعلموا الطرب والغناء وما شابه ذلك من الموبقات.

زعامة شيت

عندما مرض آدم عليه السلام مرضه الأخير. جعل الوصيّة لابنه شيت، وأمره أن يكتم علمه عن قابيل حتىٰ لا يفعل به ما فعله مع هابيل، ومنع بنيه من الاختلاط

بأبناء قابيل، حتى يحصّنهم من الأمراض التي انتشرت بين أبناء قابيل من اللهو واللعب والفساد والافساد.

ومن نشاطات شيت[٢٥]: أنّهُ بنى الكعبة من الحجارة والطين بعدما كانت من الخيام.

واستطاع شيت أن يضبط من كان تحت ولايته على المنهج الإلهي الصحيح فترة حياته، وينجح في عزلهم عن أبناء قابيل؛ ليحافظوا على الفطرة التي فطرهم الله تعالىٰ عليها، والأمانة التي أودعها سبحانه وتعالىٰ، ويلتزموا بالميثاق الذي أخذه الله على الإنسان.

وعندما حضرته الوفاة أوصىٰ لابنه آنوش ما أوصاه آدم عليه السلام إليه. وما زال أبناء آدم الذين سكنوا الحرم محافظين على التزامهم ما لم يختلطوا بأبناء قابيل وذريته، ويتوارد زعامتهم صالح بعد صالح إلىٰ أن جاء «برد» فنزل بعض ذرية شيت من الجبل، واختلطوا بذرية قابيل التي عمّها الفساد ومن بعد «برد» «اخنوح» وقيل: إنّه إدريس النبي عليه السلام[٢٦] فزاد الاختلاط وكثر الفساد حتىٰ بين أبناء شيت، ولم يبق من الصالحين إلّا نفر قلائل، فنقضوا الميثاق وعبدوا الأوثان، وبدأت مرحلة العمل الاصلاحي التي تزعمها نوح عليه السلام.

زعامة نوح:

وفي زمانه استشرى الفساد وعبدوا الأوثان كما ذكر القرآن الكريم ﴿**وقالوا لا تذرنّ آلهتكم ولا تذرنّ ودّاً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوقَ ونسراً وقد أضلوا كثيراً**﴾[٢٧]. ولما طالت دعوته دون أن يستجيب له أحد، بل وجد الأبناء أشر من الآباء اعتذر نوح إلىٰ ربّه ﴿**قال ربِّ إني دعوتُ قومي ليلاً ونهاراً * فلم يزدهم دعائي إلّا فراراً**﴾[٢٨].

فأجابه ربّه: ﴿**أنّه لن يؤمن من قومك إلّا مَن قد آمن...**﴾[٢٩] عند ذلك دعا نوح ربّه: ﴿**ربِّ لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً**﴾[٣٠].

فاقتضت الحكمة الإلهية أن تطهر الأرض من الكافرين لتبدأ دورة حياة جديدة للإنسان. فأمر الله تعالىٰ نوحاً أن يصنع الفلك ﴿**واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون**﴾[٣١] وفعلاً تحقق أمر الله فيهم وعلموا ما كانوا يجهلون ﴿**حتىٰ إذا جاء أمرنا وفار التنور**﴾[٣٢] وحتى لا تنقرض الحياة علىٰ هذا الكوكب ﴿**قلنا احمل فيها من كلّ زوجين اثنين وأهلك إلّا من سبق عليه القول ومن آمن**﴾[٣٣] واستثنى الله تعالى ابن نوح ﴿**... إنّه ليس من أهلك إنّه عمل غير صالح**﴾[٣٤] ثم جاء أمر الله إلى السماء والأرض ﴿**ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر**﴾[٣٥] ولم ينفع ابن نوح الذي اعتصم بأحد الجبال الشاهقة حيث ﴿**لا عاصم اليوم من أمر الله إلّا من رحم**﴾[٣٦] وعندما طهرت الأرض من الظالمين ﴿**وقيل بعداً للقوم الظالمين**﴾[٣٧] عند ذلك جاء الأمر الإلهي الآخر ﴿**وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض الماء**﴾[٣٨].

وبهذا بدأت دورة حياة جديدة للإنسانية. وزّع عناصرها نوح عليه السلام ـ مما بقي معه في السفينة ـ على الكرة الأرضية[٣٩]. فكان سام الابن الأكبر لنوح ووصيه كذلك، جعله في القسم الذي فيه مكة.

وفي الفترة بين نوح عليه السلام وإبراهيم عليه السلام لم يحدثنا التاريخ أنّ مكة بنيت في هذه الفترة أو مصّرت. إلّا أنّها بقيت مقدسةً، وكان يأتيها المظلوم والمتعوذ من أقطار الأرض ويدعو عندها المكروب، فكلّ من دعا هنالك استجيب له. وكان الناس يحجّون إلىٰ موضع البيت حتىٰ بوّأ الله مكانه لإبراهيم عليه السلام[٤٠].

زعامة ابراهيم

في خضم الصراع البشري بين الحق والباطل وبين الإيمان والكفر. ينتصر إبراهيم عليه السلام لرسالة الحق بعد أن ادّخره الله وحفظه بالاعجاز من طاغوت عصره النمرود؛ ليكلفه تبليغ رسالة السماء. وتكلفه هذه الرسالة الشيء الكثير، وتضطره للهجرة هنا وهناك، والتنقل من بلاد إلىٰ أُخرىٰ، ويبتليه الله تعالى كما ابتلى سائر

الأنبياء والرسل، ويمتحنه عدة امتحانات، ومما امتحن به ابراهيم عليه السلام خلوه من الولد ـ بعد أن بلغ من العمر عتياً ـ ليكون وصيه يحمل همّ الرسالة من بعده. فمد يد الضراعة إلى الله والسؤال ﴿**ربِّ هب لي من الصالحين**﴾[٤١] ويأتي الجواب من ربّ العالمين ﴿**فبشرناه بغلام حليم**﴾[٤٢] لكن لا من زوجته ساره. وإنما من هاجر، التي وهبتها سارة لإبراهيم عليه السلام. بعد أن دفعتها مشاعر الحنو إلىٰ صوت الطفولة؛ ليبدد سكون البيت الممل. ولكن لما ولدت هاجر اسماعيل انقلبت المشاعر إلىٰ مشاعر الغيرة الكامنة في النفس، فتطلب سارة من إبراهيم أن لا يسكنا مع هاجر في مكان واحد. فيأتي الأمر الإلهي لإبراهيم عليه السلام أن يهاجر بهاجر وابنها إلىٰ حرم الله. ولما انتهت الرحلة بأرض مكة القاحلة، توجه إبراهيم إلىٰ ربّه ﴿**ربنا إني أسكنت من ذريتي بوادٍ غير ذي زرع عند بيتك المحرم**﴾[٤٣] فاستجاب له ربّه أن هَيّأَ أسباب الحياة في ذلك الوادي، فنبع الماء من تحت قدم إسماعيل، ثم جاء الخير الذي ترجوه هاجر بعدما دلت الطيور النازلة في ذلك الوادي على الماء، فاجتذبت تلك الطيور إحدى القوافل إلىٰ ذلك الوادي فوجدوا هاجراً وابنها تحت عريشها، فاستأذنوها بالهبوط معها في ذلك الوادي، فأَذنت لهم مستبشرة بذلك، ولما علموا أنّها حرم إبراهيم وهذا ابنه إسماعيل زادوها احتراماً، واهدوا لولدها مجموعة من الماعز، ولما بلغ إسماعيل عليه السلام مبلغ الرجال تزوج منهم زوجته الأولىٰ.

وكان لإبراهيم عليه السلام ثلاث زيارات لإسماعيل قبل بناء البيت، وعند زيارة ابراهيم الأولىٰ، لم يجد ابراهيم الحفاوة والتكريم المعهود في عصره من زوجة إسماعيل بعد أن كان إسماعيل غائباً عنها في الصيد. فترك رسالة شفوية رمزية. تقول له: «غير عتبة دارك»[٤٤]. ومفادها أن يطلق زوجته فامتثل ابراهيم عليه السلام أمر أبيه وطلّقَ زوجته وتزوج بثانية. وعندما زاره للمرة الثانية وجد الحفاوة التامة والكرم حتىٰ إنها (زوجة إسماعيل الثانية) غسلت رأسه من غبار التعب. فترك إبراهيم عليه السلام رسالة شفوية أخرىٰ تقول له «حافظ علىٰ عتبة دارك»[٤٥].

وأما الزيارة الثالثة. فقد جاء بأمرٍ عظيم. ألا وهو الأمر الإلهي ببناء الكعبة؛ لتكون مثابة للناس وأمناً ﴿**وإذ يرفع إبراهيمُ القواعدَ من البيت وإسماعيلُ ربّنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم**﴾(٤٦).

ولما فرغ إبراهيم وإسماعيل من البناء أتاه جبرئيل عليه السلام وأقاما مراسم الحج معاً؛ لتكون سُنّه للأجيال القادمة، وعندها دعا إبراهيم الناس للحجّ ﴿**وأذّن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلىٰ كلّ ضامر يأتين من كلّ فجٍّ عميق**﴾(٤٧).

اسماعيل عليه السلام

الذبح: عندما تقترن الزعامة بالنبوّة. تصبح لها نكهة خاصة، تجذب إليها النفوس الكريمة، وتهوي إليها الافئدة الطاهرة، ويقترب منها الصالحون. وعندما يختار الله سبحانه وتعالىٰ عبداً لحمل رسالته، يدخله في دورة من الابتلاءات والامتحانات حتىٰ تكتمل شخصيته، ويكون مؤهلاً لحمل الرسالة. وإسماعيل عليه السلام كان واحداً من أولئك العباد الصالحين، الذين اختارهم الله لرسالته، وادخله دورة تأهيلية لحمل النبوّة. ومن مفردات تلك الدورة قصة الذبح. حيث يرىٰ إبراهيم عليه السلام في المنام أنه يذبح ابنه إسماعيل ﴿**يا بني إني أرىٰ في المنام أني أذبحك**﴾(٤٨) ورؤيا الأنبياء صادقة كاليقظة. فيلبي إبراهيم أمر ربّه، وفي رحلة الحج أو غيرها يقف ابراهيم علىٰ إسماعيل وهو يصلح النبل للصيد، ليبلغ إسماعيل عليه السلام بالأمر الصعب. فهل يستجيب له كما استجاب في المرّات السابقة من الطلاق وبناء البيت والحج وغيرها؟ ﴿**يا أبتِ افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين**﴾(٤٩) ويحاول إبراهيم أن ينفذ الأمر في ابنه ﴿**فلما أسلما وتلّه للجبين**﴾(٥٠) تنفيذاً لأمر الله وعندما وضع السكين علىٰ رقبته أدركتهُ الرحمة الإلهية فجاءه النداء الإلهي ﴿**... أن يا ابراهيم * قد صدّقت الرؤيا إنّا كذلك نجزي المحسنين * وإنّ هذا لهو البلاء المبين * وفديناه بذبح عظيم**﴾(٥١).

وانطلق إسماعيل يبدأ خطى الحياة من جديد. بعد أن أصبح مؤهلاً للزعامة

الدينية والدنيوية. ويحسن إدارة مكة مستعيناً بأبنائه الاثني عشر وعلىٰ رأسهم نابت وقيدار، الذين يرتبط نسب العرب المستعربة بهم، والذين نزل القرآن بلغتهم. ولذلك كان الرسول ﷺ يقول: أنا ابن الذبيحين يعني إسماعيل وعبدالله. وورد عنه ﷺ كذلك. «**إذا افتتحتم مصر فاستوصوا بأهلها خيراً فإنّ لهم ذمة ورحماً**» وكان يقصد هاجر أمّ إسماعيل المصرية ومارية أمّ ابراهيم زوجة النبي ﷺ القبطية المصرية.

ولما حسنت إدارة مكة علىٰ عهد إسماعيل وبنيه، كثرت الهجرة إلىٰ مكة وتمصرت، خاصة بعد خراب سد مأرب حيث انتشرت الأقوام المحيطة في السد، وقسم منها هاجر إلىٰ مكة. ويُستدل من بعض الأخبار أنّ مكة قد عمرت بالسكان في عهد إسماعيل حتىٰ كان لها نظام حكم وسلطة وإدارة، خصوصاً أن مكة كبرت واتسعت وتشابكت مصالح سكانها، وأصبحت لها مواسم تختلف مهماتها من طقوس دينية وعروض تجارية وغير ذلك[٥٢]. وبقيت هكذا تزدهر إلىٰ أن توفي إسماعيل، وجاء من بعده ابنه نابت، وكان الرئيس بعده والقائم بالأمور والحاكم المطلق في مكة والناظر في أمر البيت وزمزم. ثم جاء بعد نابت قيدار بن إسماعيل وسار بالطريقة التي سار بها أخوه نابت وأبوه إسماعيل عليهم السلام.

زعامة جرهم:

اختلف المؤرخون في إدارة مكة بعد نابت وقيدار، فمن قائل: إنّ إدارتها كانت لجرهم بعدهما، وآخر ينسب ذلك إلى العماليق، وثالث يقول: إنّها كانت مشتركة بين جرهم والعماليق، ثم حدث صراع بينهم أدىٰ إلىٰ نفي العماليق عن مكة، والى سيطرة جرهم عليها. وآخر يعيد ذلك الحدث من الصراع الى «طسم» أو أبناء قنطورا. إلّا أن أشهر الأخبار تشير إلىٰ أن الذين تولوا إدارة مكة بعد أبناء إسماعيل هم جرهم، وهم الذين تزوج إسماعيل منهم زوجته، إلّا أنهُ كذلك اختلف في كيفية استيلائهم على الادارة، هل كانت بالحرب والقوة أم بالسلم؟ واختلف كذلك هل

كانت جرهم تسكن مكة أو قريباً منها قبل إبراهيم وزوجته هاجر وابنها، أم أنّها كانت غير مسكونة، وإنما اتفق مجيء قافلة من جرهم، وفي أثناء مرورهم علموا من نزول الطير وجود ماء في وادي مكة، وعثروا علىٰ هاجر وابنها في تلك الحال(٥٣)؟

ثم إنه هناك من يقول: إنّ جرهم اثنان. الأولىٰ ابيدوا علىٰ يد القحطانيين. والثانية هي التي تولت إدارة مكة بعد أبناء إسماعيل(٥٤).

وعلىٰ كل حال أنّ جرهم تصاهرت مع إسماعيل وكانوا يتكلمون العربية، وأنّ إسماعيل أخذ منهم اللغة العربية بعد أن عاش بين ظهرانيهم منذ نعومة أظفاره حتىٰ وفاته.

ثم إنّه في أيام إدارة جرهم، لم يكن أحد يقوم بأمر الكعبة غير ولد إسماعيل تعظيماً لهم. فقام بأمر الكعبة بعد ثابت أمين، ومن بعده يشجب بن أمين، ثم الهميع، وبعده أدر الذي عظم شأنه في قومه وجلّ قدره، وأنكر علىٰ جرهم أفعالهم، وهلكت جرهم في عصره(٥٥). علىٰ إحدى الروايات وفي رواية المسعودي في المروج(٥٦): أنّ أول ملوك جرهم بمكة مضاض بن عمرو بن سعد بن الرقيب بن هيتي بن نبت بن جرهم بن قطحان، ثم بعده عمرو بن مضاض، ثم الحارث بن عمر، ثم عمر بن الحارث، ثم مضاض بن عمر الأصغر. وفي رواية أخرى لليعقوبي(٥٧)؛ أنّ أول ملوك جرهم مضاض بن عمر، ثم الحارث بن مضاض، ثم عمر بن الحارث، ثم المفسم بن ظليم، ثم الحواس بن جحش بن مضاض، ثم عداد بن ضداد بن جندل، ثم محص بن عداد، ثم الحارث بن مضاض بن عمر، وكان آخر من ملك من جرهم.

دفاع جرهم عن مكة: وقد دخلت جرهم في حروب متعددة دفاعاً عن موقعها، فمن ذلك أنّ الحارث بن مضاض أول من ولي البيت، وكان كلّ من دخل مكة بتجارة عشرها عليه في أعلىٰ مكة. وملك العماليق السميدع بن هوبز بن

لاوي بن قيطور بن كركر. وكان يعشر من دخل مكة من ناحيته، وكانت بينهما حروب فتارة تكون على الجرهميين وأخرىٰ لهم، واستقام الأمر لجرهم آخر المطاف[٥٨] وينقل حسين أمين في موسوعة العتبات المقدسة[٥٩]: أنَّ في أيام الحارث ابن مضاض الجرهمي نشطت حركة بني إسرائيل، وزحفوا يريدون مكة من الشمال، فقاتلهم الحارث بن مضاض، فهزمهم واستولىٰ علىٰ تابوت من الكتب يحملونه، وفيه ما انتحلوه من الزبور.

سقوط جرهم

وردت أخبار متباينة في كيفية سقوط جرهم. فمن ذلك ما ذكره ابن هشام[٦٠]: أنّ جرهماً بغوا بمكة واستحلوا حلالاً من الحرمة، فظلموا من دخلها من غير أهلها، وأكلوا مال الكعبة الذي يهدىٰ لها، ففرق أمرهم، فلما رأت بنو بكر ابن عبد مناة من كنانة، وغبشان من خزاعة ذلك أجمعوا لحربهم وإخراجهم من مكة، وكانت مكة في الجاهلية لا تقر فيها ظلماً ولا بغياً، ولا يبغي فيها أحد إلّا أخرجته، ولا يريدها ملك يستحل حرمتها إلّا هلك مكانه. فيقال: إنها ما سميت بكة إلّا أنها كانت تبك أعناق الجبابرة إذا أحدثوا فيها شيئاً. فلما أحسَّ عمرو بن الحارث الجرهمي خرج بغزالي الكعبة وبحجر الركن فقذفها في زمزم، وانطلق هو ومن معه إلى اليمن، فحزنوا علىٰ ما فارقوا عن أمر مكة وملكها حزناً شديداً، فقال عمرو بن الحارث بن عمرو بن مضاض في ذلك شعراً:

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا ... أنيس ولم يسمر بمكة سامر
فقلت لها والقلب مني كأنما ... يلجلجه بين الجناحين طائر
بلى نحن كنا أهلها فأزالنا ... صروف الليالي والجدود الغوائر
وكنا ولاة البيت من بعد نابت ... نطوف بذاك البيت والخير ظاهر

ولهذا الشعر قصة لطيفة: إنّ عمرو بن الحارث كان قد نزل بقنونا من أرض

الحجاز، فضلت له إبل فبغاها حتىٰ أتى الحرم، فأراد دخوله ليأخذ إبله، فنادىٰ عمرو بن لحى: من وجد جرهمياً فلم يقتله قطعت يده. فسمع بذلك عمرو بن الحارث، وأشرف علىٰ جبل من جبال مكة، فرأىٰ إبله تنحر ويتوزع لحمها، فانصرف بائساً خائفاً ذليلاً وأبعد في الأرض، وبغربته يضرب المثل، ثم قال هذا الشعر.

وفي رواية اليعقوبي[٦١]. أن جرهم لما طغت وظلمت وفسقت في الحرم، وأكلوا مال الكعبة الذي يهدىٰ إليها، سلط عليهم الذر فاهلكوا عن آخرهم.

ورواية المسعودي[٦٢] تقول: لما بغت جرهم في الحرم وطغت حتىٰ فسق رجل منهم في الحرم بامرأة، بعث الله علىٰ جرهم الرعاف والنمل وغير ذلك من الآفات، فهلك كثير منهم. وكثر ولد إسماعيل وصارو ذوي قوة ومنعة، فغلبوا علىٰ أخوالهم جرهم، وأخرجوهم من مكة فلحقوا بجهينة، فأتاهم في بعض الليالي السيل فذهب بهم.

مشاريع جرهم:

١ ـ **حلف الفضول**: من مشاريع جرهم حلف الفضول الأول. وذلك أن نفراً من جرهم وقطوراء يقال لهم الفضيل بن الحارث الجرهمي والفضيل بن وداعة القطوري المفضل بن فضالة الجرهمي اجتمعوا فتحالفوا أن لا يقروا ببطن مكة ظالماً. لا ينبغي إلّا ذلك لما عظم الله من حقها. ثم درس ذلك فلم يبق إلّا ذكره في قريش، إلىٰ أن أعيد في حياة النبي ﷺ في دار عبدالله بن جدعان، وقبل البعثة النبوية الشريفة[٦٣].

٢ ـ بناء الكعبة: والحدث الآخر بناء الكعبة بعد أن أخذها السيل وزادوا في بناء البيت، ورفعته علىٰ ما كان عليه من بناء إبراهيم عليه السلام[٦٤].

٣ ـ الإطعام: والشيء الآخر إطعام الطعام للوافدين إلىٰ مكة، وطبخوا الكثير

وسمي المكان بطابخ[٦٥].

بعد سقوط جرهم عادت مكة لأبناء إسماعيل. وكان أول من تولى الزعامة من ذرية إسماعيل عليه السلام أياد بن نزار بن معد، لكن لم يستتب الأمر إلىٰ أياد حتىٰ نشب نزاع بين أياد ومضر، فكانت بينهم حروب كثيرة حتىٰ ظهرت مضر علىٰ أياد، فأنجلوا من مكة إلى العراق قرب الكوفة، واجلاهم كسرىٰ أنوشيروان إلىٰ تكريت والجزيرة والموصل، ثم نزحوا منها إلىٰ بلاد الرومان والشام[٦٦].

وذكر اليعقوبي[٦٧] أنّ أياداً لما أرادوا الرحيل من مكة حملوا الركن علىٰ جمل فلم ينهض به، فدفنوه وخرجوا، وبصرت بهم امرأة من خزاعة حين دفنوه فلما بعدت أياد اشتد علىٰ مضر وأعظمته قريش وسائر مضر، فقالت الخزاعية لقومها: اشرطوا علىٰ قريش وسائر مضر أن يصير إليكم حجابة البيت حتىٰ أدلكم على الركن ففعلوا ذلك، فلما أظهروا الركن صيروا إليهم الحجابة.

تضاربت الأخبار في كيفية وصول خزاعة إلىٰ زعامة مكة، وكذلك اختلفوا فيهم هل هم من قحطان أو من عدنان؟ هناك رأي يذهب إلى أنّ قبيلة خزاعة كانت تنزل حول الحرم في أيام جرهم، وأنّ أصلها من اليمن كالجرهميين، وقد هاجرت بسبب ما كان ينتظر من الدمار، الذي خلفه السيل وأقامت في مكة، فقامت خزاعة في وجه جرهم ووقع القتال بينهما، واعتزل بنو إسماعيل القتال، فتغلبت خزاعة علىٰ جرهم، وانتزعت منهم الإمارة وأجلتهم عن مكة[٦٨].

في حين كتب الدكتور حسين أمين في الموسوعة نفسها[٦٩]: أن خزاعة خزع من قبيلة الأزد العربية الكبيرة، ويضيف أنّ معظم النسابة ينسبون هذه القبيلة إلىٰ عمر بن لحي بن حارثة. ويذكر المسعودي[٧٠] أنّ سبب تسميتهم خزاعة لما خرج عمر بن عامر وولده من مأرب انخزع بنو ربيعة فنزلوا بتهامة، فسموا خزاعة لانخزاعهم. أما صاحب الميزان[٧١] يُسميهم الإسماعيليين، ثم نسبهم إلىٰ عمر بن لحي، وهو أول زعيم لخزاعة علىٰ مكة. ويعتقد الأخباريون أن أول من نصب

الأوثان على الكعبة هو عمرو بن ربيعة، وهي لحي بن حارثة بن عمر بن عامر الأزدي، أبو خزاعة، ويعتبر أول من غيّرَ دين إسماعيل، فنصب الأوثان، وسيب السائبة، وبحر البحيرة وحمى الحمىٰ[٧٢]. ويذهب ابن الأثير[٧٣] إلىٰ أنَّ أول من ولي البيت بعد جرهم عمرو بن ربيعة وقيل وَلِيَه عمر بن الحارث العساني ثم خزاعة بعده. وقال: إنّ خزاعة أبقت لمضر ثلاث خصال: الإجازة بالحج من عرفة وذلك الى الغوث بن حر بن اد، وهو صوفة. والثانية الإضافة من جُمع إلىٰ منىٰ، وكانت إلىٰ بني زيد بن عدوان. والثالثة: النسيء للشهور الحرام فكان ذلك إلى القلمس.

الاصنام:

يذكر أنّ أول من أدخل الأصنام إلىٰ مكة هو عمر بن لحي[٧٤]. وقصة ذلك: عندما مرض عمر بن لحي وصفوا له أحد العيون في البلقاء من ربوع الشام، أن من يغتسل بها يشفىٰ، ولما استحمّ بها وبرئ من مرضه، رأىٰ أهل ذلك البلد يعبدون الأصنام، ولما سألهم عنها أجابوه: هذه أرباب نتخذها لنا نستنصر بها ونستشفي بها. عند ذلك طلب صنماً منها فأعطوه «هبل» فوضعه بعد عودته فوق الكعبة، ومن ذلك اليوم بدأت تنتشر الأصنام بين العرب، وأصبح لكلّ قبيلة صنم، ومع ذلك بقيت ثلة مؤمنة علىٰ دين الحنفية دين إبراهيم عليه السلام.

كانت نهاية خزاعة علىٰ يد قصي بن كلاب، والذي اسمه الحقيقي زيد بن كلاب. مات أبوه وتركه صغيراً، فتزوجت أمّه من ربيعة بن حزام كبير بني عذرة، فنقلها إلىٰ بلد عذرة من مشارف الشام، وحملت معها زيداً لصغره، فشب في حجر ربيعة، وسمّي قصياً لبعده عن دار قومه. ولما عيره أخوه لأمّه الفضاعي بالغربة، رجع إلىٰ أُمّه وسألها عما قال. فقالت له: يا بني أنت أكرم منه نسباً ونفساً أنت ابن كلاب بن مرّة، وقومك في مكة عند البيت الحرام. وعندها شدّ الرحال إلىٰ مكة وأقام مع أخيه زهرة، ثم خطب إلىٰ حليل بن حبشة ابنته فزوجه، وحليل يومئذٍ يلي الكعبة وهو شيخ كبير. فولدت لقصي أولاده عبد مناف وعبدالعزىٰ وعبد

قصي. وكثر ماله وعظم شرفه، ولما هلك حليل أوصىٰ بولاية البيت لابنته حبىٰ. فقالت: إني لا أقدر علىٰ فتح الباب وإغلاقه، فجعل فتح الباب إلىٰ ابنه المحترش، فاشترىٰ قصي منه ولاية البيت بزق خمر وبعود فضربت العرب المثل فقالت: أخسر صفقة من أبي غبشان. وقيل: أحليل من حبشة أوصىٰ قصياً بذلك، وقال: أنت أحق بولاية البيت من خزاعة. عندها جمع قومه وأرسل إلىٰ أخيه من فضاعة يستنصره، فحضر فضاعة في الموسم. وكانت صوفة تدفع بالناس من عرفات وتجيزهم إذا تفرقوا من منىٰ. فأتاهم قصي ومن معه من قومه ومن فضاعة فمنعهم وقال: نحن أولىٰ بهذا منكم، فقاتلوه وقاتلهم قتالاً شديداً فانهزمت صوفة، وغلبهم قصي. فانحازت خزاعة بعد أن عرفت أنه سيمنعهم كما منع صوفة، وكثر القتال بين خزاعة وبني بكر من طرف وقصي وفضاعة من طرف آخر. ثم تداعوا الى الصلح، علىٰ أن يحكموا بينهم عمرو بن عوف بن كعب بن ليث من كنانة، فقضىٰ بينهم بأن قصياً أولى بالبيت من خزاعة، وإنّ كلّ دم أصابه من خزاعة وبني بكر موضوع يشدخه تحت قدميه، وإنّ كلّ دم أصابت خزاعة وبنو بكر من قريش وبني كنانة ففي ذلك الدية مؤداة(٧٥).

زعامة قريش

الزعيم الأول قصي:

تولىٰ قصي الزعامة بعد أن حكم له عمرو بن عوف بالأحقية في ولاية البيت، وهو أول رئيس. ووردت الأخبار أنه لمّ شعث قومه وجمعهم من الأودية والشعاب والجبال إلىٰ مكة، وابتنىٰ مقر رئاسته وسمي دار الندوة، يجتمع فيه أعيان قريش ويقررن ما شاءُوا من الأحكام في أمور السلم والحرب، فكان يشبه المجلس النيابي أو مجلس الشورىٰ. وسنّ تشريعات جديدة تقضي بعدم أحقية من لم يبلغ الأربعين من السنين أن يدخل هذه الدار. وكلما توسعت مكة وكثر سكانها وروادها

والمهاجرون إليها، كلما تعددت الأغراض وتوسعت المهام واحتاج الوضع إلىٰ نظام إداري أفضل، وخاصة بعد أن أصبحت مكة وأسواقها المركز التجاري الأول في العالم؛ للاختلال الذي وقع في النقل البحري بسبب الصراع القائم بين الدول العظمىٰ والروم والفرس والأحباش، فأصبح الممر التجاري البري أكثر أماناً، فاندفعت آلاف الإبل تنقل البضائع وتحط الرجال في مكة المحطة العالمية الأمينة، خاصة بعد انهدام الممالك العربية في أطراف الجزيرة ودخول الأحباش لها.

عند ذلك عمد قصي إلى أن يؤسس نظاماً إدارياً أشبه ما يكون بالنظام الجمهوري، فكان هذا النظام قائماً علىٰ أساس تقسيم المهام وتوزيعها علىٰ مجموعة أفراد. والمهام هي:

١ ـ السدانة: وهي الحجابة، وباستطاعة المتولي فتح الباب وغلقها لأن المفتاح بيده.

٢ ـ دار الندوة: ويمكن أن نعبر عنها مجلس الشورىٰ والقضاء.

٣ ـ اللواء: وهو الراية فكان لقريش راية اسمها العقاب، وكانوا إذا أرادوا الحرب أخرجوها. فإذا اجتمع رايهم علىٰ واحد سلموه إياها، وإلّا فإنهم يسلمونها إلىٰ صاحبها.

٤ ـ السقاية: وهي عبارة عن حياض من أدم (جلود كانت علىٰ عهد قصي توضع في فناء الكعبة، ويسقىٰ فيها الماء العذب من الأبار على الإبل ويسقاه الحجاج).

٥ ـ الرفادة: خرج من المال كانت قريش تخرجه من أموالها في كلّ موسم فتدفعه إلىٰ قصي يصنع به طعاماً للحجاج يأكله من لم يكن معه سعة ولا زاد.

٦ ـ القيادة: هي إمارة الركب وتقودهم إلى القتال في الحرب ويتزعمهم في قيادته وفي الخروج للتجارة.

وتفرعت من هذه المناصب مناصب أخرىٰ أهمها (الاشناق) وهي تنظر في

الديات والغرم. (القية) وهي تجهيزات الجيش في الحرب. (الاعنة) وهي تدبير شؤون الخيل عند قريش في الحرب (المشورة) وهو منصب مهمته إسداء النصيحة والمشورة. (السفارة) وهي القيام بالاتصال بين قريش وغيرهم من القبائل إذا وقعت حرب، أو تطلّب الأمر مذاكرة وصلحاً. (والايسار) وهي الأزلام التي كانوا يستقسمون بها للاستخارة مما يشبه سحب القرعة. (الحكومة) وهي التي تحكم بين الناس إذا اختلفوا أشبه بالقضاء. (الأموال المحجرة) وهي الأموال التي كانت تخص آلهتهم من النقد والحلي والسلاح، وهي تشبه بيت المال في الإسلام. وكانت ولايتها في بني سهم.

(العمارة) ويراد بها أن لا يتكلم أحد في المسجد الحرام يهجر ولا يرمث ولا يرفع صوته. ويمكن أن يوصف صاحبها المسؤول والمحافظ علىٰ حرمة البيت[٧٦] وهذا النظام جعل مكة عامرة ذات أمجاد وشهرة انفردت بها بين جميع المدن العربية قبل الإسلام. وتعطىٰ هذه المناصب وتوزع علىٰ وجهاء بطون قريش لاسترضائهم للمشاركة في فعاليات مكة وضمان وحدتها.

الصراع على الزعامة

لما كبر قصي وعلم قرب وفاته أجمع علىٰ أن يقسم أمور مكة بين بنيه. فأعطىٰ عبدالدار السدانة ودار الندوة واللواء، واعطىٰ عبد مناف السقاية والرفادة والقيادة[٧٧]. في حين يرى اليعقوبي[٧٨] أنّ قصياً جعل السقاية والرئاسة لعبد مناف، والدار لعبدالدار، والرفادة لعبد العزى، وحافتي الوادي لعبد قصي.

ولما مات قصي حدث صراع بين عبد مناف وعبدالدار في الاستئثار بالمناصب، وانقسمت لذلك قريش فطائفة مع بني عبدالدار، وأخرىٰ مع بني عبد مناف، فكان صاحب أمر بني عبد مناف عبد شمس ومعه من قريش بنو أسد بن عبدالعزىٰ، وبنو زهرة بن كلاب وبنو تميم بن مرة وبنو الحارث بن فهر. وكان صاحب أمر بني عبدالدار عامر بن هاشم بن عبد مناف بن عبدالدار، وكان بنو

مخزوم بن مرة، وبنو السهم بن عمرو بن هصيص بن كعب، وبنو جمح بن عمر بن هصيص، وبنو عدي بن كعب مع بني عبدالدار. وخرجت عامر بن لؤي ومحارب ابن فهر فلم يكونوا مع واحد من الفريقين.

وعقد كل قوم علىٰ أمرهم حلفاً مؤكداً علىٰ أن لا يتخاذلوا، فأخرج بنو عبد مناف جفنة مملوءة طيباً، وضعوها لاحلافهم في المسجد عند الكعبة ثم غمس القوم أيديهم فيها، فتعاقدوا وتحالفوا ثم مسحوا الكعبة بأيديهم، فسموا المطيبين.

وتعاقد بنو عبدالدار وتعاهدوا هم وحلفاؤهم عند الكعبة حلفاً مؤكداً فسموا الاحلاف. ويقال إنّهم وضعوا أيديهم في دم جزور ذبحوها، ولعق أحدهم من ذلك الدم فسموا الأحلاف ولعقة الدم.

ثم تداعوا بعد ذلك للصلح علىٰ أن يعطوا بني عبد مناف السقاية والرفادة، وأن تكون الحجابة واللواء والندوة لبني عبدالدار كما كانت، وتحاجز الناس عن الحرب[٧٩].

زعامة عبد مناف

قام عبد مناف بن قصي علىٰ أمر أبيه بعده، وأمر قريش، واحتفظ بمكة رباعاً بعد الذي كان قصي قد قطعه لقومه.

ولماجلّ قدره وعظم شأنه وشرفه وكبر أمره، جاءته خزاعة وبنو الحارث ابن مناة بن كنانة يسألونه الحلف؛ ليعزوا به فعقد بينهم الحلف الذي يقال له حلف الأحابيش[٨٠].

زعامة هاشم:

وهو أكبر أبناء عبد مناف واسمه عمرو العلا. وإنما سمي هاشماً؛ لأنّه أول من هشم الثريد لقومه وأطعمهم. ويمتاز بشخصية قوية ونفوذ واسع لما قدم من خدمات لقومه، وما ابتدع من مشاريع. وكان منها حفر الآبار. مثل بئر (سجله) وبئر بدر.

وهاشم أول من سنّ الرحلتين لقريش رحلة الشتاء للحبشة. ورحلة الصيف

الىٰ غزة وبلاد الشام... ذكرها القرآن الكريم ﴿**لإيلاف قريش * إيلافهم رحلة الشتاء والصيف**﴾.

وهو الذي أخذ الحلف من قيصر لقريش علىٰ أن تأتي قريش للشام وتعود آمنة[٨١].

ومن أخلاقه وكرمه أنّه خرج بتجارة عظيمة يريد الشام، فجعل يمرّ بأشراف العرب، فيحمل لهم التجارات مجاناً، ولا يلزمهم مؤنة حتىٰ صار إلىٰ غزة فتوفي فيها[٨٢].

كما كان هاشم يخرج مالاً كثيراً، ويأمر بحياض من أدم فتُجعل في موضع زمزم، ثم يسقىٰ فيها من الآبار التي بمكة، فيشرب منها الحاج، وكان يطعمهم بمكة ومنىٰ وعرفة وجُمح، وكان يثرد لهم الخبز واللحم والسمن والسويق، ويحمل لهم المياه حتىٰ يتفرق الناس إلىٰ بلادهم فسمي هاشماً[٨٣].

وكان يخطب الناس ويحثهم علىٰ إكرام ضيوف الله فيقول: «يا معشر قريش إنكم جيران الله وأهل بيته فهم أضياف الله، وأحق الضيف بالكرامة ضيفه، ثم حفظ منكم أفضل ما حفظ جار من جاره. فأكرموا ضيفه وزواره فإنهم يأتون شعثاً غبراً من كلّ بلد علىٰ ضوامر كالقداح وقد أعيوا ونفلوا وقملوا وارملوا فأقروهم وأغنوهم»، فكانت قريش ترافد علىٰ ذلك[٨٤].

صراع أمية وهاشم

ويبدو أنّ ما أصاب هاشماً من علو المكانه وسمو المجد أثار حسد أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي، وكان ذا مال فيتكلف أن يصنع صنيع هاشم فعجز منه، فشمت به ناس من قريش فغضب، ونال من هاشم ودعاه إلى المنافرة، فكره هاشم ذلك لسنه وقدره فلم ترعه قريش وأحفظوه، قال هاشم: فإني أنافرك علىٰ خمسين ناقة سود الحدق تنحرها ببطن مكة، والجلاء عن مكة عشر سنين، فرضي أمية بن عبد شمس بذلك، وجعلا بينهما الكاهن الخزاعي وهو جدّ عمرو بن

الحمق ومنزله بعسفان، وقد قضى لهاشم بالغلبة، فأخذ هاشم الإبل ونحرها وأطعمها من حضره، وخرج أمية إلى الشام عشر سنين، فكانت هذه أول عداوة بين هاشم وأمية(٨٥).

وقد أجاد في شعره مطرود بن كعب الخزاعي عندما مرَّ برحل مجاور في بني هاشم وفيه بنات له وله امرأة في سنةٍ شديدة:

يا أيّها الرجل المحول رحله	هلا نزلت بآل عبد مناف
هبلتك أمّك لو حللت بدارهم	ضمنوك من جوع ومن إقراف
عمرو العلىٰ هشم الثريد لقومه	ورجال مكة مسنتون عجاف
نسبوا إليه الرحلتين كليهما	عند الشتاء ورحلة الاصياف
الآخذون العهد في آفاقها	والراحلون لرحلة الإيلاف(٨٦)

تولى الزعامة بعد هاشم بن عبد مناف أخوه المطلب بن عبد مناف، وكان أصغر من عبد شمس وهاشم وذا شرف في قومه وفضل وكان سيداً مطاعاً في قومه، وكانت قريش تسميه الفيض لسماحته، فولي بعد هاشم السقاية والرفادة، وهو الذي عقد الحلف لقريش مع النجاشي في متجرها، وخرج مرّةً لتجارة إلىٰ أرض اليمن، وتوفي بردمان من بلاد اليمن(٨٧).

زعامة عبد المطلب

لما أراد هاشم الخروج إلى الشام حمل امرأته سلمىٰ بنت عمرو إلى المدينة؛ لتكون عند أبيها وأهلها، وكان معهُ ابنهُ (شيبة). فلما توفي هاشم في سفره، أقامت بالمدينة مع ابنها. واتفق أن مرَّ رجل من تهامة بالمدينة فرأىٰ غلماناً يتناضلون فإذا غلام منهم إذا أصاب يقول: أنا ابن سيد البطحاء، فقال له الرجل: من أنت يا غلام؟ فقال: أنا شيبة بن هاشم بن عبد مناف، وانصرف الرجل حتىٰ قدم مكة، فوجد المطلب جالساً في الحجر، فقصّ الرجل علىٰ ما رأىٰ من ابن أخيه، فقال

المطلب: أغفلته أما والله لا أرجع إلىٰ أهلي حتىٰ آتيه.

ثم خرج علىٰ راحلته حتىٰ أتىٰ بني عدي بن النجار، فلما نظر إلىٰ ابن أخيه قال: هذا ابن هاشم فأردفه خلفه وعاد به إلىٰ مكة، وقال البعض من غير علم أمه، وزعم الآخرون كان بإجازة من أمّه.

فلما استقبل أهل مكة المطلب وهم يرحبون به ويحيونه ويقولون: من هذا الذي معك؟ فيجيب هذا عبدي ابتعته ببثرب. وبقيت قريش إذا رأته تقول: هذا عبدالمطلب، فلجّ اسمه عبدالمطلب وترك شيبة[٨٨]. هذه هي قصة اليتيم الثاني بعد قصي، وكلٌ كانت لهُ زعامة استثنائية، وننتظر اليتيم الثالث في مكة، الذي تزعَّم الإنسانية كلّها وإلى الأبد، ذلك رسول الله محمد ﷺ.

ولما حضر رحيل المطلب إلى اليمن قال لعبدالمطلب: أنت يا بن أخي أولىٰ بموضع أبيك فقم بأمر مكة. فتوفي المطلب في سفره، فقام عبدالمطلب بأمر مكة.

إعادة حفر زمزم

لما تكامل لعبدالمطلب مجدُهُ، وأقرت لهُ قريش بالفضل، رأىٰ وهو نائم في الحجر، آتياً أتاهُ فقال له: قم يا أبا البطحاء واحفر زمزم، وتكررت الرؤيا وفيها علامات تدل علىٰ مكان زمزم، فانطلق فأتىٰ بمعول وابنه الحارث وحيده، فاجتمعت إليه قريش فقالوا: ماذا تفعل؟ فقال: أمرني ربّي بما يروي الحجيج الأعظم، فاعترضوا ولم يكترث باعتراضهم. فلم يحفر إلّا قليلاً حتىٰ بدا الطي فكبّر، واجتمعت قريش وعلمت لما رأت الطي أنّه صادق. وحفر حتىٰ وجد سيوفاً وسلاحاً وغزالين من ذهب، فضرب من الأسياف باباً للكعبة، وجعل أحد الغزالين صفائح ذهب في الباب، وجعل الأخرىٰ في الكعبة[٨٩].

يدعي الأخباريون أنّ عبدالمطلب لم يكن لهُ من الولد أولاً إلّا الحارث، فنذر لله إن رزقه الله عشرة أولاد أن يذبح ولداً قرباناً لله، ولما تكاملوا عشرة بولادة عبدالله وهو أجملهم وأكثرهم خصالاً كريمة، جمعهم وأقرع بينهم فكانت القرعة

علىٰ عبدالله خصمهم علىٰ أن يفي بنذره ويضحي بولده المذكور، ولما عرفت قريش منه الجد في ذلك اجتمعت عليه؛ لتصرفه عن هذا الأمر، لئلا يصبح سنة بين العرب، واقترحوا عليه أن يأخذ مائة من الإبل ويقرع بينها وبين عبدالله، ففعل ذلك ثلاث مرات فجاءت القرعة في كلّ مرّة على الإبل فنحرها وتركها للناس، فتواثبوا عليها من كلّ جانب. ويذكر أن دية القتل لهذا أصبحت مئة من الإبل(٩٠).

حادثة الفيل

ومن الأمور التي حدثت أثناء زعامة عبدالمطلب وأعطته دفعة معنوية، وجعلت الناس تكنّ له الاحترام وتهابه؛ قصة الفيل التي ذكرها القرآن الكريم في سورة الفيل ﴿**أَلم ترَ كيف فعل ربّك بأصحاب الفيل * أَلم يجعل كيدهم في تضليل * وأرسل عليهم طيراً أبابيل * ترميهم بحجارة من سجيل * فجعلهم كعصفٍ مأكول**﴾.

وخلاصة القصة التي ذكرتها جميع التفاسير وكتب التاريخ المطولة والمختصرة هي: أنّ إبرهة الأشرم أحد قواد النجاشي الحبشي العظام، لما فتح اليمن بنىٰ كنيسة كبيرة أراد بها أن يصرف العرب عن حجّ مكة إليها. فتغوط بعض العرب فيها، وقيل هدموا بعض جدرانها بقصد الإهانة، فعزم إبرهة أن يسير إلىٰ مكة فيهدمها. وإنّ مقدمات إبرهة أصابت نعماً لقريش، فأصابت فيها مائتي بعير لعبدالمطلب، فاستأذن عبدالمطلب الملك، فلما رآه أكرمه ونزل من سريره وجلس بجنبه، ثم قال له: ما حاجتك؟ قال: حاجتي أن تردَّ إلي إبلي فاستصغره الملك، فأجابه عبدالمطلب: أنا أُكلمك أيّها الملك في مالي، ولهذا البيت ربٌ يحميه فراع ذلك الملك. وإنّ عبدالمطلب أمر قريشاً أن يخرجوا إلىٰ رؤوس الجبال، بعد أن قالوا: لا طاقة اليوم لنا بأبرهة وجيشه، بينما التجأ عبدالمطلب إلى الكعبة وهو يدعو:

لا هم أن المرء يمنع رحلهُ فامنع جلالك.

لا يغلبوا بضيلبهم ومحالهم عدواً محالك.

فأظهر من الجلد والشجاعة والثقة بالله ما لم يظهره أحد غيره، فكان لهذا أثره البالغ عند عامة العرب، وتضاعفت ثقتهم بهِ فاتسعت زعامته في خارج مكة، بعد أن رأوا مكر الله بأبرهة وجيشه وفيله، وهي لا تلوي علىٰ شيء، فارةً مذعورةً، والطير وراءها يسقط عليهم تلك الأحجار فأين ما وقعت قتلت صاحبها، وآخر من قتل ابرهة علىٰ مشارف اليمن فانشقت بطنه فإلى لعنة الله[٩١].

ومن مفاخر عبدالمطلب أنه من القلائل، الذين أقروا بالتوحيد وتركوا عبادة الأوثان، وبقي علىٰ دين ابراهيم عليه السلام[٩٢].

وكذلك حضانته لرسول الإنسانية حتىٰ كان يقدمه علىٰ أولاده. وبالرغم من وجود أمّه وانصرافها إليه، فلقد أصبح الشغل الوحيد لعبدالمطلب وأعزّ شيء لديه، وأوكل امر إرضاعه إلىٰ جارية لولده أبي لهب تدعىٰ ثويبه، وضمّ اليه اليتيم وأمّه، ثم رأىٰ أن يرسل حفيده إلىٰ بادية سعد؛ ليرضع هناك وينشأ، ويتعلم في البادية النطق بالكلمات كما كانت عادة الأشراف في مكة. وكان عبدالمطلب قد تعود أن يستظل نهاراً بالكعبة علىٰ فراش مرتفع يحيط به ولده وأشراف مكة، فيأتي محمد صلى الله عليه وآله وهو غلام صغير فيثب على فراش جده، فيأخذه أعمامه ليصرفوه عنه فيقول لهم: دعوه إنّ لابني هذا شأناً عظيماً[٩٣].

وعند وفاته أوصىٰ عبدالمطلب إلى ابنه الزبير بالحكومة وأمر الكعبة، وإلىٰ أبي طالب برسول الله وسقاية زمزم وقال له: قد خلفت في أيديكم الشرف العظيم الذي تطأون به رقاب العرب.

وروي عن رسول الله أنّه قال: إنّ الله يبعث جدي عبدالمطلب أمّة واحدة في هيئة الأنبياء وزي الملوك.

فكفل رسول الله بعد وفاة عبدالمطلب أبو طالب عمُّه فكان خير كافل، وكان أبو طالب سيداً شريفاً مطاعاً مهيباً رغم إملاقه.

قال علي بن أبي طالب عليه السلام أبي ساد فقيراً وما ساد فقير قبله[٩٤].

الهوامش :

(١) الكاشف، مغنية: ٢٠٣ الهوامش.
(٢) الميزان في تفسير القرآن، محمد حسين الطباطبائي ١: ٢٨٥.
(٣) الميزان ١: ٢٨٨.
(٤) ابراهيم: ٣٧.
(٥) آل عمران: ٩٦.
(٦) نهج البلاغة ٢: ١٤٦، الكافي ٤: ١٩٩.
(٧) الفتاوى الواضحة: ٥٩٧.
(٨) علل الشرائع للشيخ الصدوق: ٣٩٦.
(٩) آل عمران: ٩٧.
(١٠) الميزان ٤: ٤١٤.
(١١) مروج الذهب، للمسعودي ٢: ٢٢٨.
(١٢) الميزان ٤: ٤١٤.
(١٣) مروج الذهب ١: ٢٤٢.
(١٤) الميزان ٤: ٤١٤.
(١٥) أخبار مكة للازرقي: ٥١.
(١٦) أخبار مكة للأزرقي: ٥٥، معجم البلدان ـ الكعبة.
(١٧) أخبار مكة: ٦٨.
(١٨) أخبار مكة: ٧٣.
(١٩) الاحزاب: ٧٢.
(٢٠) الاعراف: ١٧٢.
(٢١) الكامل في التاريخ ١: ٣٩ ـ ٤٠.
(٢٢) المائدة: ٢٧.
(٢٣) المائدة: ٢٨.
(٢٤) المائدة: ٣٠.
(٢٥) أخبار مكة ١: الكامل في التاريخ ١: ٦٢.

(٢٦) مروج الذهب ١: ٣٩، الكامل في التاريخ ١: ٦٧، اليعقوبي ١: ٣٤.
(٢٧) نوح: ٢٣، ٢٤.
(٢٨) نوح: ٦ ـ ٣٠.
(٢٩) هود: ٣٦.
(٣٠) نوح: ٢٦.
(٣١) هود: ٣٧.
(٣٢) هود: ٤٠.
(٣٣) هود: ٤٠.
(٣٤) هود: ٤٦.
(٣٥) القمر: ١٢.
(٣٦) هود: ٤٣.
(٣٧) هود: ٤٤.
(٣٨) هود: ٤٤.
(٣٩) الكامل في التاريخ ١: ٧٥، المروج ١: ٤١، اليعقوبي ١: ٥١.
(٤٠) أخبار مكة للأزرقي: ٥٢.
(٤١) الصافات: ١٠٠.
(٤٢) الصافات: ١٠١.
(٤٣) ابراهيم: ٣٧.
(٤٤) الكامل في التاريخ ١: ٩٠، مروج الذهب ٢: ٤٧، ٤٨.
(٤٥) الكامل في التاريخ ١: ٩٠، مروج الذهب ٢: ٤٧، ٤٨.
(٤٦) البقرة: ١٢٧.
(٤٧) الحج: ٢٧.
(٤٨) الصافات: ١٠٢.
(٤٩) الصافات: ١٠٢.
(٥٠) الصافات: ١٠٣.
(٥١) الصافات: ١٠٤ ـ ١٠٧.
(٥٢) موسوعة العتبات المقدسة، قسم مكة، جعفر الخليلي: ٣٤.
(٥٣) اليعقوبي ١: ٢٧٠.
(٥٤) دائرة المعارف الإسلامية ٦: ٣٥٠، تاريخ ابن خلدون ٢: ٣.
(٥٥) تاريخ اليعقوبي ١: ٢٧١.

(٥٦) مروج الذهب ١: ٥١.
(٥٧) تاريخ العقوبي ١: ٢٧١.
(٥٨) مروج الذهب ٢: ٤٩، سيرة ابن هشام ١: ١١٧، بدل العماليق مَطورا.
(٥٩) سيرة ابن هشام ١: ١١٩.
(٦٠) سيرة ابن هشام ١: ١١٩.
(٦١) تاريخ اليعقوبي ١: ٢٧١.
(٦٢) مروج الذهب ٢: ٥٠.
(٦٣) الكامل في التاريخ ١: ٤٧٣.
(٦٤) مروج الذهب ٢: ٥٠.
(٦٥) سيرة ابن هشام ١: ١١٨، مروج الذهب: ٥١.
(٦٦) موسوعة القرن العشرين، فريد وجدي ٦: ٢٤٧، مروج الذهب ٢: ٢٧٤.
(٦٧) انظر موسوعة العتبات المقدسة قسم مكة: ٢٨.
(٦٨) المصدر السابق: ٦٨.
(٦٩) المصدر السابق: ٦٨.
(٧٠) مروج الذهب.
(٧١) الميزان.
(٧٢) بلوغ الأرب ٢: ٢٠٠، الأغاني ١٣: ١٠٩.
(٧٣) الكامل في التاريخ ١: ٤٧٥.
(٧٤) مروج الذهب ١: ٢٧٤، ابن هشام ١: ٧٨.
(٧٥) الكامل في التاريخ ١: ٤٥٨ ـ ٤٦٠، موسوعة العتبات المقدسة: ٦٨، طبقات ابن سعد ١: ٤٦ ـ ٤٧، ابن هشام ١: ١٣٠.
(٧٦) موسوعة العتبات المقدسة مكة: ٤٠ ـ ٤٤.
(٧٧) أخبار مكة: ٦٦.
(٧٨) تاريخ اليعقوبي ١: ٢٩٢.
(٧٩) سيرة ابن هشام ١: ١٣٨، ابن الأثير ٢: ١٤.
(٨٠) تاريخ اليعقوبي ١: ٢٩٢.
(٨١) تاريخ اليعقوبي ١: ٢٩٤، سيرة ابن هشام ١: ١٤٣.
(٨٢) تاريخ اليعقوبي ١: ٢٩٥.
(٨٣) تاريخ اليعقوبي ١: ٢٩٣، سيرة ابن هشام ١: ١٤٣.
(٨٤) تاريخ اليعقوبي ١: ٢٩٣.

(٨٥) طبقات ابن سعد ١: ٥٦، ابن الأثير ٢: ١٠.
(٨٦) تاريخ اليعقوبي ١: ٢٩٥.
(٨٧) سيرة ابن هشام ١: ١٤٤، طبقات ابن سعد ١: ٦٢، اليعقوبي ١: ٢٩٦.
(٨٨) تاريخ اليعقوبي ١: ٢٢٧، ٢٧٦، سيرة ابن هشام ١: ١٤٤ ـ ١٤٥.
(٨٩) تاريخ اليعقوبي ١: ٢٢٨ ـ ٣٠٠، مروج الذهب ٢: ١٢٧، ابن هشام ١: ١٢٠ ـ ١٥٥.
(٩٠) سيرة المصطفىٰ هاشم معروف الحسني: ٤٠، اليعقوبي ١: ٣٠٣، ابن هشام ١: ١٦٠، المروج ٢: ١٢٧.
(٩١) الميزان ٢٠: ٤١٩، اليعقوبي ٢: ٣٠٤، وجميع التفاسير وكتب التاريخ.
(٩٢) مروج الذهب ٢: ٢٢٧، اليعقوبي ٢: ٣٣١.
(٩٣) سيرة المصطفىٰ: ٤٦، ابن هشام ١: ١٧٧.
(٩٤) اليعقوبي ٢: ٣٣٥.